المدينة القديمة

قصة بقلم ايليا إهرنبرج
نقلها الى العربية حبابر النقاش

الخيانة شيء مظلم ومفزع (١) ، إنها تدفع بالقلب الى الانقباض والتقلص، وتحيل الانسان إلى جثة حية قبل موته الحقيقي بكثير، وما اكثر ما يتكلم الخائن: إنه يحاول أن يغرق الفزع الذي يمسك بروحه، في ضجة كلامه. ولكنه سيتلعثم فجأة ، وينتهي إلى الصمت ... الصمت الجامد كالقبر ، وعيون الخائن ذات حيلة ومكر ، لها نظرة سريعة ماكرة ، كأنها نظرة حيوان سجين ، وليس من السهل أن تدقق النظر في عين خائن ، ولكن إذا أتيح لك اخيراً هذا ، فسترى انها فارغة جوفاء .. ان للخيانة رائحتها الخاصة ، ولها كذلك بعد ارتكابها طعم خاص، هو الطعم العنيف المر لليأس.

جاء وقت كان فيه ألكسي كيبوف ، نائب الحاكم في مدينة « كيرسك » ، حراً ، وسعيداً . وفي تلك الأيام افشى اسرار وطنه فكافأه الألمان واغدقوا عليه من نعمهم ، وأعطوه كهدية ، منزلاً كان ملكاً لانسان آخر. وكان الضابط الالماني يحييه ويشد على يديه في حرارة ، ولكن كيبوف لم يكن مطلقاً يشعر بالسعادة ، ومع كل يوم جديد ، تزداد نفسه كآبة عما كانت عليه من قبل . كان يجلس في مكتبه ، وبيد ثابتة ، يعد قوائم باسماء الاشخاص « غير الموثوق بهم » : لقد كان يفشي أسرار زملائه الروس إلى الألمان، وآنذاك كان ينظر في دهشة الى يده — وبدأ يتجنب رؤية وجهه في المرآة ، وحتى العسل الذي كان الفاتحون يتقاضونه من الفلاحين . . . حتى هذا كان مراً في فمه .

حلقت طائرة سوفييتية على « كيرسك » ، وسأل الضابط الالماني كيبوف «أي طائرة هذه؟» فأجاب «إنها طائرة روسية». وبعد قليل ظهرت طائرة المانية ٢ ، فأضاف كيبوف « وهذه اخرى لنا » ، وقهقه الالماني على اثر ذلك وقال « انك تخدع نفسك ، فلا هذه ولا تلك من طائراتكم » ، فتخاذل كيبوف: لقد دفع من جديد الى الشعور بثمن خيانته .

اشتهر شيخ إحدى القرى في مقاطعة كيرسك ، بوحشيته الصريحة ، فقد كانت النساء تجلد علانية بأوامر تصدر منه ، ولم يكن يترك الكبير أو الصغير ، وكانت تسليته المحبوبة هي اصطياد الحمام برصاص البنادق الالمانية .

كان يقول « انهم لا يتركون لي لحظة سلام واحدة ، ولو استطيع لأجليتهم جميعاً ... » كانت الخيانة تأكل قلبه ، ولقد حاول ان يشغل ذهنه بأشياء اخرى ، ولكن دون فائدة .

حين تقهقر الالمان كان هناك رجل ذو عيون ، زجاجية ، حمراء ، يجري وراء آخر عربة نقل في طريقها الى الرحيل .. كان هذا الرجل هو شيخ القرية سابقاً .

ذات مرة كنت جالساً في حجرة بأحد البيوت ، وكان هناك شيء حيرني يلوح في عيني سيدة المنزل ، كان يبدو ان عليهما غشاوة .. وكانتا ايضاً خاليتين من الحياة ، وكانت السيدة تبدي كثيراً من الاحجام والكراهية اثناء إجابتها عن الاسئلة التي كنت اوجهها لتلطيف جو الحجرة الذي كان ممتلئاً اكثر من اللازم بصمت لا يحتمل ، وكان هناك طفل يلعب في ركن من الاركان .

سألتها « هل كان الالمان يزورونك ؟ » — فأجابت بالنفي، فقلت « لقد كنت محظوظة » .

ولكن الطفل اندفع يقول « لقد كان أوتو يجيء » ، وأخذ الطفل يطبل على الكرسي بيديه وهو يكرر في عناد « لقد تعود أوتو ان يجيء ، لقد تعود أوتو ان يجيء » .

على اثر هذا تركت السيدة الحجرة ، دون ان تتفوه بكلمة، ولم استطع ان ابقى اكثر من ذلك ، فقد بدت لي الحجرة وكأنها خلت من الهواء . واسرعت بالنزول الى الشارع ، وكان يوماً مضيئاً ، مليئاً بالجليد ... كانت مئات النساء — وعيونهن ترمش في اشعة الشمس الساطعة — يبتسمن للراية الحمراء الاولى التي كانت ترف آنذاك فوق سارية بيت بدت عليه آثار القنابل ، وكان الكون يشع بالحياة والفرح — كان هناك امرأة واحدة — ذات شعر اشقر ، وعيون زجاجية ، لا تجد لنفسها مكاناً في هذا الكون .

ان الاخلاص لا يقوي الانسان فقط ، انه يدفيء قلبه كذلك .. في قرية بديونوفكا ، كان فردريك ريتش ، يتلذذ في سادية بتعذيب الصغار من الصبيان والفتيات .

---

(١) من مجموعة قصص روسية قصيرة ، لبعض الكتاب الروسيين المعاصرين صدرت طبعتها الانجليزية بموسكو ١٩٤٤ تحت عنوان « فجر الكراهية ».

(٢) نوع من الطائرات الالمانية المقاتلة المسماة باسم مخترعها «مزرشميت».

كتب مرة يقول « انهم شديدو العناد ، الى حد كبير ».

كان يضربهم بالسياط دون رحمة، ولكنه مع ذلك لم يستطع ان ينتزع كلمة من افواههم. لقد ظن انه سيذلهم ويجعلهم ينحنون في استسلام ، ولكن لم يكن هناك مفر من اعترافه بالهزيمة ، والاخلاص وحده هو الذي ألهم هؤلاء الصغار الشجاعة ، والاخلاص وحده هو الذي كان عزاء ساعتهم الاخيرة .

لم يكن كوليا جوزيانوف يزيد عن الحادية عشرة من عمره حين امره جماعة من الالمان — كانوا اشد سوءاً إذ كانوا في حالة سكر — ان يهتف « عاش هتلر » ، ورفض كوليا ، فقالوا له في صورة الامر « والآن ايها الافعى الصغيرة.. ستفعل ام-لا ؟» ولكن كوليا اجابهم « كلا ، لن افعل ... إنني سوفيتي »

وعلى الفور دمروه ، دمروا حياته القصيرة ، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا ان يرغموه على ما يريدون ، وكان الاخلاص هو الذي قواه ، وعضده .

كانت ماريا كراسكوڤا العجوز ، من الحريصات على الذهاب الى الكنيسة بانتظام ، وقد طلب الألمان ذات مرة من المجتمعين ، اثناء القدّاس ، ان يصلوا داعين الله من اجل هتلر ، فصاحت العجوز ماريا : « إننا روس ، سنصلي فقط من اجل انتصار جيشنا » .

وعلانية جلَدوا ماريا كراسكوڤا ، وبعد ذلك أغلقوا عليها مخزناً قارس البرودة ، ولكنها في شجاعة استمرت تصلي في سجنها من اجل انتصار الجيش الاحمر .

خمسة عشر شهراً تحت نير الألمان لم تستطع ان تكسر إرادة الملايين من مواطنينا : لقد قاسوا فزعاً لا يوصف ... جاعوا واضطهدوا ، وعُذب الكثير منهم ، وقتل الكثير ، ولكن قلوبهم الروسية كانت ممتلئة بإيمان عميق لا يهتز : لقد خلقنا لنقاسي في سبيل معتقداتنا ، كانوا يصلون من اجل عودة الجيش الاحمر .. بالطريقة نفسها التي يصلي بها عامل المنجم املاً في نسمة من الهواء النقي وهو يختنق بالموت في بطء داخل منجمه المهدد بكارثة .

ممن كان افراد حرب العصابات ينتظرون المعونة في « كيرسك » ؟ : من النساء ، من المدرسين ، من العمال ، من الفتيات ، من الطلبة ، من الشيوعيين الناشئين ، من باڤل جوڤورف ، من البنات والصبيان الصغار ، من الأمهات ... في كلمة واحدة من الشعب — إنهم لم يحتفظوا فقط بكبريائهم بل استطاعوا ان يحتفظوا ايضاً بخفة ارواحهم ... هذه الصفة التي كانت تسمى من قبل بالمرح .

كل واحد يعرف الآن علام يدل « العمل في المانيا » — لقد نفى الألمان بالقوة والعنف ، الفتيات والصبيان حيث يباعون بألمانيا في سوق علنية. فبعضهم يشتريه اصحاب المصانع والبعض الآخر يشتريه الفلاحون، اما الرجال والنساء، فيباعون كرقيق ، ويرغمون على ان يطيعوا اوامر الالمان القساة الجشعين .. ألا ما أقسى الحياة في قيد ، ولكن ... حتى هناك ، حيث مئات من الأميال تفصلهم عن اوطانهم ، وحيث هم تحت الرعاية « الحنون » لأصحاب العمل ، فإن الروس لم يتغير ابداً إيمانهم بالوطن ، وأمامي خطابان كتبتهما بنتان من « كيرسك » .. دون حذر او احتياط ، كتبتا من المانيا ..

١٥ يناير ، ١٩٤٣

« أمي العزيزة ، نينوشكا ، ميشا ، جالوشكا ، ناديا :

« اليوم هو اليوم الذي تسلمنا فيه الخطاب الأحمر ، أنا و «تانيا» ... لقد وصلتنا رسالتكم ، وقد كنت اغسل الملابس طيلة الصباح ، وكنت أشعر بتعب . لقد كان امامي كمية هائلة وكان عليّ ان اقوم بغسلها ، وفجأة جاءتني « تانيا » تجري وفي يدها خطاب لي ، فهرولت اليها مسرعة .

« عزيزاتي ، متى ينتهي هذا كله ؟ إنه مؤلم وشاق أن نتحمل هذا العذاب المفروض علينا ان نقاسيه — أمي العزيزة ، آه لو تعلمين كم هو قاس ! ولكني انا وتانيا ، نتحمل في صبر ، فاذا استطعنا ان نثبت ونقاوم فسيكون هذا من حظنا .

« إن الشتاء هنا قارس ؟ ولكن ما من أحد يعيرنا أقل التفات ، وماذا يهمهم لو خرجنا عرايا تماماً ، إنهم ليسوا إلا مجموعة أوغاد ، ما عليهم إلا ان يجلسوا في بيوتهم المريحة ، كل مهمتهم ان يصدروا الينا الاوامر : إعملي هذا ... اعملي ذاك . ولا مفر من الطاعة ، ولو كنت في وطني وحاول إنسان ان يأمرني ، إذن لبصقت في وجهه القذر ، أما هنا فعلى الانسان ان يغلق فمه ويعمل ما يؤمر بعمله .

« عزيزتي نينوشكا ، لقد سألتني عن رؤسائي اي نوع من الناس هم ، ... آه : لو كانوا فقط « ناساً » ، إنهم ليسوا ابداً كذلك ، إنهم يجلسون حولنا لابسين « دستة » من الجوارب الغليظة ، دون ان يفعلوا شيئاً ، وحتى اللحظة التي وصلتني فيها

جواربي ، وقد بعثت بها إليّ ، كنت اخرج عارية الاقدام ، وكانوا يرون ذلك ، ثم يضحكون فقط وكأنها نكتة .

« نينوشكا : إنك لا تتخيلين كيف كانت مشاعري حين تسلمت ذلك الطرد من وطني ، لقد ذرفت عيناي الدموع ، ولكنها كانت دموع الفرح .. وجواربي ! لقد احسست حين لبستها انها أشد امتلاء بالدفء من دستة كاملة من جواربهم ، لأنها جواربي ،.. جواربي الخاصة ، ومن وطني حيث كنت اعيش امرأة حرة ، ربما في مستوى أقل فخامة من رؤسائي ، عليهم اللعنة .. ولكن على أي حال كنت اعيش بالطريقة التي أحب ، ولكن لا تخافي يا اختي العزيزة ، فسنعيد ذكرى كل شيء فعلوه بنا ، حينما يأتي الوقت .

« نينا العزيزة ، إذا لاحت لك فرصة فأرجو ان ترسلي إليّ قميصي الاسود ، قميصي المستدير الذي تعرفينه ، فالثوب الذي ارتديه ، ليس إلا مجموعة من المزق ، وهذا بالطبع لا يلفت اهتمام الوحوش ، هؤلاء الوحوش القساة ، إن عليّ ان أعمل هنـــا في الفناء منذ الصباح الباكر إلى ساعة متأخرة من الليل ، في تنظيف مراحيضهم او زريبة البقر والخنازير ، وهكذا تتبدد حياتي وتتبعثر ، وكم احس برغبـة في تمزيق هؤلاء الوحوش ، من اجل تلك القسوة والضغينة الصريحتين ، فهنا بعض الروس الذين يضربون كل يوم تقريباً من رؤسائهم ، وهم يحاولون ان يفعلوا ذلك معنا ، انا وتانيا ، فقد حاولت سيدة تانيا ان تهاجمها اليوم ، ولكن تانيا نظرت اليها في طريقـة تؤكد لهذه السيدة انها لا تساوي ذرة من الاهتمام ، صرخت تانيا فيهـــا « هل تجرئين ايتها القرد الأحول ...؟ » — ولا استطيع ان احدثك الآن عما سيحدث لتانيا .

« هذا هو نوع الناس الذي يمثلونه ، كل ما يريدونه هو ان نكون عبيداً لهم ، أما خروجنا في مزق بالية رثة ، فهذا شيء لا يعنيهم بحال ، إنها لمدة قاسية بالنسبة لنا ، ولكن حتما سيأتي اليوم الذي لا نقاسي فيه شيئاً ، وسيقاسون هم ... سيقاسون جزاء كل هذا الذي ارتكبوه .

« نينا العزيزة ، إننا ، انا و « تانيا » كثيراً ما نكتب لكم ، ولكنني لا استطيع ان افسر مطلقاً لماذا لا تصلكم رسائلنا ، ولقد سألتني ان أخبركم عن انواع الوجبات التي نحصل عليهـا ، حسناً ... إننا نملك قريباً مما يمكنه ان يمسك الروح في الجسد حتى الربيع ، أما بالنسبة لهم فانهم يستمرون في التهام الطعام حتى يصبحوا على وشك الانفجار .

« العزيزة نينا ... إنك لم تكتبي شيئـاً عن انفسكم ، وكم نحن قلقتان نريد ان نعرف كل شيء ، فنحن لا نحصل على أي خبر هنا ... إننـا نعمل فقط ، ونريد ان نعلم قبل كل شيء : كيف تسير الأمور في الخطوط الاماميـــة ؟ كيف يحارب رجالنا ؟ إننا جاهلتان تماماً بكل ما يحدث .

« حظ سعيد لكم جميعاً .

« امي العزيزة ، لا تقلقي عليّ ، لقـد تعلمت كيف انتصر لنفسي ، وسأعود حتماً الى وطني .

« حبي وقبلاتي للجميع .

كلافا »

٢

« ١٥ يناير ، ١٩٤٣

« امي العزيزة ، وخالي شورا :

لن تستطيعا ان تتصورا اي سعادة ان أتلقى منكما خطابا ، فقد كنت اخشى ألا تكونا بعدُ على قيد الحياة ، او ان تكونا — كما تمنيتُ — على الجانب الآخر من الجبهة مع إخوتكم .

« عزيزتي ، ماما ، إننا هنا معزولون عن كل شيء يجري من الأحداث ، وربما أمكنكم ان تكتبوا وتخبرونا على الاقل بما يحدث ، فاننا مشوقون ايضاً الى ان نعرف متى سنكون احراراً من حياة العبودية هذه التي نحياها .

« ماما العزيزة ، لقد أخبرتني في رسالتك انك بعثت إليّ بطرد صغير ، لكني لم أتسلم شيئـاً .. ماما العزيزة ، لا تبعثي إليّ بشيء ، إنني على يقين من انـكم لا تملكون فائضـــاً من الطعام او الملابس حتى تستغنوا عن شيء ، اما بالنسبة لي فأنا لا أعطي ادنى التفات لمثل هذا الآن ، انني حقيقة لا أملك حذاء ، وتغطي المزق جسدي بصعوبة ، وانا دائماً جائعة ، ولكن هذا كله لا يقلقني قدر ما تقلقني الرغبة في العودة من جديد الى وطني .

« امي العزيزة وخالي شورا : لن تستطيعـــا ان تتصورا بسهولة اي لون من الحياة نعيشه هنا ، وليكون عندكما فكرة ما يجب اولاً ان تعيشاها وترياها بأعينكم ، إن الحياة في قيـد ليست فراشاً من الزهور ، ومع ذلك فلا تتصورا ولو في لحظة انني تغيرت ، فليست مثلي التي تتغير ، ولست من هذا النوع الذي يذعن لأمثال هؤلاء الحقراء : حين يعصيهم الانسان يستدعون البوليس ، وانا لا استطيع يا ماما ان اكتب كثيراً ،

ولكن حين اعود فسأقص عليك الطرق التي كنا نضحك عليهم بها انا وكلافا ، بالرغم من رجال بوليسهم .

« ولأستودعكم الله في الحاضر ، وارجو ان تصفي كل شيء لحالي شورا ، وان تتأكدا من انني سأعود

ابنتك : تانيا »

وقد قرأت هاتين الرسالتين البسيطتين ، وأعدت قراءتها . عن أي حزم وجرأة تعبران !. وهؤلاء هم الناس الذين ظن هتلر انه سيستعبدهم : بنتان صغيرتان ، أكبر قليلاً من الاطفال ، تباعان في رق ، وينتهرهما الألمان الأشرار ، ولكن البنتين تمكنتا من الثبات حتى النهاية. ترى ما الذي أمدهما بهذه القوة ؟ إنه الاخلاص ، ثمينة هذه الدموع التي ذرفتها كلافا امام جواربها القديمة التي جاءتها من وطنها ، من بلدتها كيرسك، لقد تذكرت ولا شك ، الحواجز الوعرة لـ « تسكار » ، حديقة المدينة التي كانت تضج بالضحك والغناء . وتذكرت وطنها الأصلي : روسيا ، حيث كانت هناك تسأل اختها « كيف يحارب رجالنا ؟ » إنها ليست كالخائن « كيبوف » ، إنها روسية حقيقية ، وإن كانت مستعبدة في المانيا ، وليست انانية كل ما يهمها « انا » حيث تعرف بدقة معنى « نحن » . في ضاحية ريفية بألمانيا اخذت كلافا تفكر في التقدم الكبير للجيش الأحمر وكانت صديقتها « تانيا » هي الاخرى شديدة الاقتناع بان اليوم الذي سيحرر فيه الجيش الأحمر امها وخالها شورا ، ليس بعيداً .

اما اقرباء البنتين ، فليتنفسوا في حرية . لقد عاشوا ليروا الساعة التي طالما اشتاقوا اليها ، وسيأتي حتماً ذلك اليوم الذي ستعانق فيه البنتان الروسيتان من قاموا بتحريرهما .

يستطيع الألمان ان يجلدوا الروس ويعذبوهم ويقتلوهم ، ولكنهم لن يستطيعوا ان ينتزعوا من قلوبهم هذه الروح النبيلة التي تنبض فيها روح الاخلاص ، إنها الروح التي يظهر الانسان معها بجبين جريء مرتفع حتى وهو يعاني أقسى لحظات العذاب ، وإن معرفتنا بعدالة قضيتنا ، بكبريائنا القومية إنما يضاف الى مجد مدننا التي هدمها الألمان .

« نحن » تلك هي الكلمة التي كانت إلهاماً لسكان كيرسك مدة خمسة عشر شهراً ، حتى استطاع رجالنا ان يدخلوا ، كالعاصفة ، إلى شوارع « كيرسك » الكثيرة التلال ، ولربشة الرسامين ان تتفاوت في رسم هذا المنظر ، وربما رسمه البعض أكثر جمالا ، ولكن سيكون حتما أقل تأثيراً .

اندفع الجائعون ، الذين عذبوا ، الى الشوارع ، ولم تكن معهم اعلام ولا زهور ، كل ما كانوا يملكونه، دموع افراحهم، وهذه الكلمة الكبيرة « نحن » ، وكان الجنود اشبه بالموتى بعد هذا المشي الطويل، والحروب العنيفة، وكانت احذيتهم وقفازاتهم في حالة تلبد وجمود ، ووجوههم ايضاً ، بدت من اثر الثلج وكأنها مقوسة ، لقد اندفعوا خلال الشوارع الكثيرة التلال ليستمعوا إلى صيحة التكريم « جنودنا » ... لم يغنوا او يضحكوا ، فقد كان كل هذا الاجتماع رمزاً لفرح قوي ، لانتصار الحياة لانتصار الحق، وكان الاخلاص هو الذي مكن « كيرسك » من ان تبقى روسية ، فلم تستطع حفنة المارقين ان تشوّه روحها ، وكان الاخلاص هو الذي قاد فرق الجيش الأحمر إلى ابعد من عربات الفحم المعادية خلال الجليد الكثيف عبر حقول المناجم .

ولا يستطيع الانسان بعد مشاهدة بعث هذه المدينة القديمة إلا ان يمجد من جديد الفضيلة الكبرى لروسيا ، تلك التي تمد جنودنا بالقوة ، ونساءنا بالجمال : الاخلاص .

نقلها الى العربية

القاهرة **رجاء النقاش**

المعهد العالي

بيروت

تعلن إدارة المعهد العالي أنها ستفتتح الفرع الصيفي في مدينة بحمدون ، أشهر مصايف لبنان ؛ في أوائل شهر تموز كالمعتاد .

داخلي — خارجي

أقسامه : روضة اطفال ، ابتدائي ، ثانوي

يستحسن حجز الأماكن للطلبة الداخليين باكراً . والبيانات ترسل الى من يطلبها مجاناً .

المخابرة مع الادارة

برج ابي حيدر — قرب المسجد — بيروت — لبنان

ص. ب. ١٠٨٥